ثامناً: العدل

الحديث الحادي والثلاثون: إقامة الحدود على الشريف والوضيع

حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا ليث عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة رضي الله عنها «**أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: ومن يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد، حِبُّ رسول الله ﷺ؟ فكلمة أسامة، فقال رسول الله ﷺ: أتشفع في حد من حدود الله؟ ثم قام فاختطب، ثم قال: إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيفُ أقاموا عليه الحدَّ. وايمُ اللهِ لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها**».

- تخريج الحديث:

- فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ج٦ كتاب أحاديث الأنبياء، باب (٥٤)، ح٣٤٧٥ ص٥٩٣، ج٧ كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر أسامة بن زيد، ح٣٧٣٢، ٣٧٣٣ ص١١٠، كتاب المغازي، باب (٥٣)، ح٤٣٠٤ ص٦١٩، ج١٢ كتاب الحدود، باب إقامة الحدود على الشريف والوضيع، ح٦٨٨٧ ص٨٨.

- صحيح مسلم بشرح النووي: ج١١ كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره، والنهي عن الشفاعة في الحدود، ج٨، (١٦٨٨)، ٩، ١٠، ١١، ص٢٦٧ - ٢٧٠.

- عون المعبود شرح سنن أبي داود: ج١٢ كتاب الحدود، باب في الحد يشفع فيه، ح٤٣٦٣، ٤٣٦٤، ص٢١، ٢٢.

- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: ج٤ أبواب الحدود عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في كراهية أن يُشفَّع في الحدود، ح١٤٥٢، ص٥٨٠، ٥٨١.

- سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي:

ج٨ كتاب قطع السارق، (٦) ذكر اختلاف ألفاظ الناقلين لخبر الزهري في المخزومية التي سرقت، ح٤٩٠٩، ٤٩١٨، ص٤٤٣، ٤٤٦.

- سنن ابن ماجه: ج٢ كتاب الحدود، باب الشفاعة في الحدود، ح٢٥٤٧، ٢٥٤٨، ص٨٥١، ٨٥٢.

- سنن الدارمي: ج٢ كتاب الحدود، باب الشفاعة في الحدود دون السلطان، ح٢٣٠٢ ص٢٢٧.

- مسند الإمام أحمد بن حنبل: ج٦، ص١٦٢، ح٢٥٣٥١.

- المعاني اللغوية:

أهمه: أي جلب له الهم والقلق.

المخزومية: نسبة إلى بني مخزوم وهي قبيلة من قبائل قريش، وإليها ينتسب خالد بن الوليد.

حِب رسول الله ﷺ بالكسرة: أي حبيب رسول الله المقرب إليه

أتشفع في حد؟ الاستفهام للإنكار، فهو ﷺ ينكر على أسامة الشفاعة في الحدود التي فرضها الله.

الشريف: صاحب المنظرة والجاه. قال ﷺ «أشراف أمتي حملة القرآن».

وايم الله: قسم بالذات المقدسة، وهو قسم بالله. وأصل ايم (أيمن الله) جمع يمين، حذفت النون منه، فصار ايم الله. وهو من أنواع القسم.

- المعنى العام:

العدالة ضرورية لإقامة الحق، وضمان العدل يشيع الطمأنينة وينشر الأمن، ويشد علاقة الأفراد بعضهم ببعض ويجعل الروابط بينهم قائمة على التوازن والانسجام والإخاء. ومن هنا نجد آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ مليئة بالدعوة للعدالة وإحقاق الحق محذرة من الظلم والبغي؛ قال تعالى: **﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾**(١). والعدل من أوصاف الرسل والأنبياء، قال تعالى: **﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾**(٢). وإقامة العدل أحدى مهمات الرسول ووظائفه **﴿وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم﴾**(٣).

والعدل الذي ينادي به الإسلام، عدل شامل يساوي بين الناس **﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾**(٤).

ولا تعتبر العداوة والشحناء التي تقوم للناس مبرراً لقيام الظلم أو ترك العدل؛ قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾**(٥).

والعدل يوصف به الفرد كما يوصف به المجتمع، فالعدل في الأفراد هو إعطاء كل ذي حق حقه، والمجتمع العادل هو الذي من نظمه وقوانينه ما يسهل لكل فرد أن يصل إلى حقه. والعدل الذي يتطلبه الإسلام عدل في الحكم **﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾**(٦).

---

(١) سورة النحل: ٩٠.
(٢) سورة الحديد: ٢٥.
(٣) سورة الشورى: ١٥.
(٤) سورة النساء: ٥٨.
(٥) سورة المائدة: ٨.
(٦) سورة النساء: ٥٨.

وهو عدل في الضعفاء وتصفية بين المتخاصمين مهما اختلفت صفاتهم، كما أنه عدل في توجيه الحقوق والواجبات، وعدل في إقامة الحدود والقصاص. وشاءت إرادة الله تعالى أن تحدث حادثة تلفت أنظار المجتمع المدني وليكون تشريعاً ونظاماً ونموذجاً في إقامة العدل وتطبيق الحدود وتطبيق الآية الكريمة ﴿**والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما**﴾[1]. «حدث أن قريشاً أهمهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح، وسبب إعظامهم ذلك خشية أن تقطع يدها، لعلمهم أن النبي ﷺ لا يتساهل في الحدود، وكان قطع السارق معلوماً عندهم قبل الإسلام، ولما نزل القرآن بقطع السارق استمر الحال فيهم»[2]. وهذه المرأة المخزومية كانت لها سوابق وقد عرفت بين الناس بإقدامها على بعض التصرفات المادية التي لا تليق بالمجتمع الإسلامي؛ «عن عروة عن عائشة قالت: كانت امرأة مخزومية تستعير المتاع وتجحده فأمر النبي ﷺ أن تقطع يدها»[3]. واسم المرأة على الصحيح فاطمة بنت الأسود بن عبدالأسد بن عبد الله بن عمرو بن المخزوم، وهي بنت أخي سلمة بن عبدالأسد الصحابي الجليل الذي كان زوج أم سلمة قبل النبي ﷺ[4].

إذاً المرأة تنتمي إلى أسرة عريقة ولها ارتباطات القرابة والصلة بأكبر البطون من قريش دفعت هذه الأمور كلها الصحابة - رضوان الله عليهم - أن يهتموا بالأمر ويبحثوا عن مخرج لتفادي إقامة الحدود «فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: من يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله؟ فأتي بها رسول الله فكلمه فيها أسامة بن زيد».

---

(١) سورة المائدة: ٣٨.

(٢) فتح الباري، كتاب الحدود، باب كراهة الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان، ج١٢، ص ٨٨.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الحدود، باب النهي عن الشفاعة في الحدود، ج١١، ص١٨٧.

(٤) فتح الباري، كتاب الحدود، ج١٢، ص ٨٨.

موقف مثير وموقف محرج للغاية، وجرأة من أسامة بن زيد - رضي الله عنه - ولكن موقف الرسول ﷺ موقف النبي العادل. فأخذته رجفة واحمرت عيناه من شدة الغضب! فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال: «أتشفع في حد من حدود الله؟» وأدرك أسامة الموقف، وندم وتأسف، وقال: استغفر لي يا رسول الله. وعرف الرسول ﷺ أن أسامة - رضي الله عنه - تأثر بالموقف وبالأجواء الموجودة في المدينة، وبضغوط من بعض الصحابة، وليس الأمر أمر أسامة فقط، وإنما الأمر يتطلب النصح والإرشاد وتصحيح المقاييس وإعادة الأمور إلى نصابها، فقام الرسول ﷺ خطيباً ثم قال: «أما بعد فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد». وهنا يبين الرسول أن أمته خير أمة ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس**﴾، والخيرية تتطلب أن تمتاز هذه الأمة بميزات كثيرة، من بينها إقامة العدل والحدود فاستخدم ﷺ كلمات التأكيد والأيمان لإبراز خطورة الموقف، وقال: «وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها[1].

ويقول ابن تيمية تعليقاً على هذا الحدث العظيم «نفس هذه القصة عبرة؛ فإن أشرف بيت كان في قريش بطنان: بنو مخزوم، وبنو عبد مناف. فلما وجب على هذه القطع؛ لسرقتها التي هي جحود العارية على قول بعض العلماء أو سرقة أخرى غير هذه على قول آخرين، وكانت من أكبر القبائل وأشرف البيوت، وتشفع فيها حِب رسول الله ﷺ أسامة غضب رسول الله وأنكر عليه دخوله فيما حرمه الله وهو الشفاعة في الحدود، ثم ضرب المثل بسيدة نساء العالمين - وقد برأها تعالى من ذلك - فقال: «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الحدود، باب النهي عن الشفاعة في الحدود، ج١١، ص ١٨٧

لقطعت يدها»[1]. وهكذا طبق الشرع وسط زوبعة ورجَّه ليكون تشريعاً ولتنتهي القضية بحسن التوبة والعودة إلى معالم الإسلام من جديد. قال يونس: قال ابن شهاب: قال عروة: قالت عائشة: فحسنت توبتها بعد وتزوجت وكانت تأتيني بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ[2].

فقه الحديث:

١ - قد أجمع العلماء على تحريم الشفاعة في الحد بعد بلوغه للإمام. فأما قبل بلوغه للإمام فقد أجاز الشفاعة فيه أكثر العلماء إذا لم يكن المشفوع فيه صاحب شر وأذى للناس.

وأما المعاصي التي لا حد فيها وواجبها التعزير فيجوز الشفاعة والتشفيع سواءا بلغت الإمام أم لا.

٢ - الحديث فيه جواز الحلف من غير استحلاف إذا كان فيه التفخيم لأمر مطلوب كما في الحديث[3].

٣ - قال العلماء: إنها قطعت بالسرقة، وإنما ذكرت العارية تعريف لها، لا أنها سبب القطع.

- ما يستفاد من الحديث:

١ - الحديث يأمر كل حاكم أن يحكم بين الناس بالعدل ولا يتبع الهوى فيضل عن السبيل القويم، ولقد بين الرسول ﷺ بقوله وعمله أن العدالة تمكن الحاكم أمره وتثبت دعائمه، فإذا ما ترك العدل بين الناس اختل نظام الحكم

---

(١) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والراعية لابن تيمية ص ٨١.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الحدود، باب النهي عن الشفاعة في الحدود، ج١١.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الحدود، باب النهي عن الشفاعة في الحدود، ج١١ ص ١٨٧.

وزالت الدولة «إن هـذا الأمر في قريش ما استرحموا رحموا، وإذا حكمـوا عدلوا، وإذا قسمـوا أقسطـوا ومن لم يفعل ذلـك فعليـه لعنـة الله والملائكـة والنـاس أجمعين».

٢ - القضاء مؤسسـة مهمة وقد حرص الإسـلام على أن يعطي هذه المؤسسة الاستقـلال والصـلاحية لضمان إحقـاق الحق وتأمين العـدل، ومن قـول عمـر المشهور «فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم إذا أدلي إليك»[1].

(١) راجع كتاب معالم الثقافة الإسلامية للدكتور عبد الكريم عثمان.

الحديث الثاني والثلاثون: السبعة المكرمون بظل الرحمن

حدثنا محمد بن بشار قال حدثنا يحيى عن عبيد الله قال حدثني خُبَيْب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه**».

- تخريج الحديث:

- صحيح البخاري بحاشية السندي م١ ، ج١ ، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد ص ١٢١ .

- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي م٧، باب ما جاء في الحب في الله، ص ٦٧، ٦٨، ٦٩ . وقال هذا حديث حسن صحيح . وهكذا رُوي هذا الحديث عن مالك بن أنس من غير وجه مثل هذا، وشك فيه . وقال: عن أبي هريرة أو عن أبي سعيد . وعبيد الله بن عمر رواه عن خبيب بن عبد الرحمن، ولم يشك فيه فقال عن أبي هريرة .

- كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس ج٢، باب ما جاء في المتحابين في الله ص ٢٦٥ .

- سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي، ج٤، كتاب آداب القضاة، الإمام العادل، ص ٢٢٢، ٢٢٣ .

- المعاني اللغوية:

يظلهم: المراد بالظل هنا هو الظل الحقيقي حيث يكون هؤلاء السعداء تحت

ظل العرش يوم القيامة بقرينة قوله «يوم لا ظل إلا ظله» فلا يمسهم حر الشمس ولا وهجها. وقيل: المراد بالظل الكرامة والحماية، فهو كناية عن الرعاية والحماية، والأول أرجح.

في ظله: إضافة الظل إلى الله إضافة تشريف وهو على حذف مضاف أي في ظل عرشه.

إمام عادل: المراد بالإمام الحاكم أو السلطان، ويشمل أيضاً القاضي وكل من له ولاية على غيره، والعادل الذي يحكم بالعدل بين الناس فلا يميل مع هوى ولا يرتشي بمال.

معلق في المساجد: أي محب لها حبًّا شديداً فهو ينتظر الصلاة بعد الصلاة يصليها بالجماعة ولا يؤخرها عن وقتها ﴿**والذين هم على صلاتهم يحافظون**﴾.

تحابا في الله: أي لأجله لا بغرض دنيوي، وتحابا أصله تحابب، أدغم الأول في الثاني، والتفاعل يعني المشاركة، أي أن كلا منهما أحب صاحبه في الله.

اجتمعا عليه: الضمير يرجع إلى الحب في الله. والمعنى اجتمعا على ذلك الحب وتفرقا عليه.

ذات منصب: أي امرأة صاحبة جاه من أصل أو شرف أو سلطان أو مال.

أخاف الله: الخوف من الله والرهبة من عذابه وهو دليل الإيمان، قال تعالى: ﴿**وخافون إن كنتم مؤمنين**﴾(١).

لا تعلم شماله ما تنفق يمينه: الشمال واليمين اليدان اللتان بجانبي الإنسان، وضُرب المثل بهما للتوضيح إشارة إلى السرية التامة والإخفاء المطلوب.

ذكر الله: من الذكر، أو من التذكر بالفكر والقلب، أي تذكر عظمة الله وجلاله فبكى من خشيته سبحانه.

---

(١) آل عمران الآية: ١٧٥.

خالياً: أي بعيداً عن الناس ليكون أقرب للإخلاص وأبعد عن الرياء.

ففاضت عيناه: أي سالت منها الدموع كأنها فيض لغزارتها، وفي الحديث «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله...».

سبعة: مبتدأ وخبره جملة «يظلهم الله» وجوَّز الابتداء بها كونها على معنى الإضافة أي سبعة أشخاص.

- المعنى العام:

الحديث يصور لمحة من لمحات الحشر وساعة من ساعات الحساب يوم تقترب الشمس وتضرب أشعتها الوجوه وتشوي النفوس والجلود ويتمنى الإنسان أن يلجأ إلى كنف أو ظل ظليل ليصون نفسه من وهج الشمس الحارقة وفي مثل هذه اللحظات العصيبة ينادي الله تعالى سبعة أصناف من الناس ليستظلوا بظل عرشه وعلى رأسهم الإمام العادل والمراد به صاحب الولاية العظمى، ويلتحق به كل من ولي شيئاً من أمور المسلمين فعدل فيه، ويؤيده رواية مسلم من حديث عبد الله بن عمرو رفعه «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا». وأحسن ما فسرّ به العادل أنه الذي يتبع أمر الله بوضع كل شيء في موضعه من غير إفراط ولا تفريط. وقدمه في الذكر لعموم النفع به[1].

والعدل الذي ينادي به الإسلام عدل مطلق يساوي بين الناس ﴿**وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل**﴾[2]. ولا تعتبر العداوة التي تقوم بين الناس مبرراً لقيام الظلم أو ترك العدل ﴿**يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون**﴾[3].

---

(١) فتح الباري، م٢ كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد ص١٤٤، ١٤٥.

(٢) سورة النساء: ٥٨.

(٣) سورة المائدة: ٨.

هذا وللعدل مجالات كثيرة نشير إلى بعضها. يقول أبو بكر - رضي الله عنه - في خطبته الأولى بعد أن ولي الخلافة: «الضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله». لمحة من لمحات معاني العدل، ووقفة من وقفات الإمام العادل الذي يستظل بظل عرش الرحمن، وكان عمر لحرصه على أن يحكم عماله وولاته بالعدل يخرج مع من يستعمله ويشيعهم ويذكر لهم أنه لم يستعملهم على الناس لينالوا من أبشارهم وأموالهم وأعراضهم، وإنما ليعلموهم كتاب الله وسنة رسوله، وليقضوا بينهم بالحق ويقسموا بينهم بالعدل، وكان يقول للناس «من ظلمه عامله بظلامة فليرفعها حتى أقصه منه» وحين سأله عمرو بن العاص قائلاً: يا أمير المؤمنين أرأيت إن أدب الأمير رجلاً من رعيته أتقصه منه؟ فقال عمر: ما لي لا أقص منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه؟. ومر عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يوماً بمكة فيرى الخدم وقوفاً لا يأكلون مع سادتهم فيغضب ويقول لسادتهم مستنكراً: «ما لقوم يستأثرون على خدامهم؟» ثم يدعو الخدم للأكل مع السادة في جفنة واحدة. وحياة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أيام خلافته مليئة بقصص العدل ونماذج رائعة من حياة الإمام العادل فهو يخطب الناس ويقول: «إن رأيتم فيّ اعوجاجاً فقوّموني» فينبري رجل من عامة المسلمين يقول «لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقومناه بحدِّ سيوفنا» فما يزيد عمر على أن يقول «الحمد لله الذي جعل في رعية عمر من يقوّمه بحد سيفه».

ولعل صورة المثل الأعلى للحاكم العادل تتضح جليًّا في هذه الرسالة التي بعث بها الحسن البصري إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز قال: «اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل وقصد كل جائر وصلاح كل فاسد وقوة كل ضعيف ونصفة كل مظلوم ومفزع كل ملهوف، والإمام

العـادل يـا أمير المؤمنين كالأب الحفي على ولـده، يسعى لهم ويعلمهم كبـاراً، يكتسب لهم في حيـاته ويـدخر لهم بعـد مماتـه، والإمام العـادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرحيمة بولدها حملته كرهاً ووضعته كرهاً وربته طفلاً، تسهر لسهره، وتسكن بسكـونه، تـرضعه تـارة، وتفطمه تـارة، وتفرح بعـافيته وتغتم بشكايتـه، والإمام العـادل يا أمير المؤمنين وصي اليتـامى وخازن المسـاكين يربي صغيرهم ويمون كبيرهم، والإمام العـادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح، تصلح بصلاحه وتفسد بفساده.

والإمـام العادل يـا أمير المؤمنين هو القـائم بين الله وبين عباده، يسمع كـلام الله ويسمعهم، وينظـر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقـودهم. فلا تكـن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنـه سيده واستحفظـه مالـه وعيالـه، فبدَّد المال وشرَّد العيال، فـأفقر أهلـه وفرَّق مالـه. واعلم يـا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجـر بها عن الخبائث والفـواحش فكيف إذا أتاهـا من يليها؟ وأن الله جعل القصـاص لعباده فكيف إذا قتـل من يقتص لهم؟ واذكر يـا أمير المؤمنين الموت وما بعده وقلة أشياعك عنده وأنصـارك عليه، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر.

واعلم يـا أمير المؤمنين أنَّ لك منزلاً غير منـزلك الـذي أنت فيـه، يطول فيـه رقـادك، ويفارقك أحبـاؤك، يسلمـونك في قعـره فريـداً وحيـداً، فتـزود له مـا يصحبك ﴿**يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه**﴾[1].

واذكـر يـا أمير المؤمنين وأنت في مهل قبل حلـول الأجل وانقطـاع الأمل، لا تحكم يـــا أمير المؤمنين في عبـــاد الله بحكم الجاهليـــة، ولا تسلـك بهم سبل الظالمين، ولا تسلط المستكبريـن على المستضعفين فإنهم لا يرقبون في مـؤمن إلاّ

(١) سورة عبس: ٣٤، ٣٦.

ولا ذمَّة فتبـوأ بأوزارك وأوزار مع أوزارك وتحمل أثقالك وأثقـالاً مع أثقالك . ولا يغرنك الـذين يتنعمون بما فيـه بؤسك ، ويأكلـون الطيبات بإذهـاب طيباتك في آخرتك . ولا تنظر إلى قـدرتك اليوم ولكن انظر إلى قدرتك غـداً وأنت مأسور في حبائل الموت ، وموقـوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة - والنبيين والمرسلين وقد عنت الوجوه للحي القيوم» .

وقـد قدمنـا هـذه الرسـالـة لأنها تعطي صـورة واضحة عن الحكم العـادل ، وتعلل لماذا ذكـر في هـذا الحديث في مقـدمـة من سيظلـون بظلـه ، والتـاريخ الإسلامي - وبخاصـة تاريخ الخلفاء الراشدين - حافل بـالأمثلة الحية والنماذج الفريدة لأئمة العدل[1] .

الصنف الثاني من السبعة الذين يظلهم الله في ظلـه يوم يقوم الناس متجردين لرب العـالمين هو «شاب نشأ في عبادة ربـه» ، وخص الشاب لكونه مظنـة غلبة الشهوة ؛ لما فيه من قوة الباعث على متـابعة الهوى ؛ فإن ملازمة العبادة مع ذلك أشد وأدل على غلبـة التقوى ، ومع ذلك أفنى شبـابه ونشاطـه في عبادة الله[2] . هذا الصنف من الشبـاب الطاهـر المليء بالقـوة والحيوية والمنـدفع نحو خـدمة الإسـلام والمسلمين ينعم - بإذن الله - بظل الـرحمن في وقت ليس بـالنـاس إلا التطلع لما يجريـه عليهـم من قضـاء وقـد علمـوا أن ليـس لهم من دونـه ولي ولا نصير، وفي وقت رهيب يصوره ﷺ قـائلاً : «إذا كان يوم القيـامة أدنيت الشمس من العبـاد حتى يكـون قيـد ميل أو اثنين ، قـال سُلَيم بن عـامـر : لا أدري أي المَيْلَيْن عَنَى ، مسـافة الأرض أم المَيْلُ الذي يُكْحَـل به العين ؟ قال : فتصهـرهم الشمس فيكونـون في العرق بقدر أعمالهم : فمنهم من يأخـذه إلى عقبه ، ومنهم

---

(١) راجع كتاب معالم الثقافة الإسلامية . د . عبد الكريم عثمان ، باب العدالة ص ٧٧ ، ٨٢ .

(٢) فتح الباري م٢ ، كتاب الأذان ، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد .

من يأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من يأخذه إلى حَقُوَيْه، ومنهم من يُلْجِمُهُ إلجاماً. فرأيت رسول الله ﷺ يُشير بيده إلى فيه، أي يلجمه إلجاماً»(١).

في مثل هذه اللحظات الحرجة العصيبة يأخذ الشباب المؤمن التقي الورع الناسك العابد جزاءه وجائزته بأن يستروح في ظل العرش ويتنعم بهذه السعادة المهيأة له جزاءً وفاقاً؛ لأن الشباب طاقة تتدفق وحيوية تمتلئ نشاطاً وانطلاقاً ولا يملك إربه إلا من اتقى ربه، وكان النبي ﷺ يدرك أبعاد خطورة هذا السنّ فكان جد حريص على علاجه. عن عبد الرحمن بن يزيد قال: دخلت مع علقمة والأسود على عبد الله، فقال عبد الله: كنا مع النبي ﷺ شباباً لا نجد شيئاً فقال لنا رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»(٢).

هكذا عالج النبي ﷺ ثورة الشباب بالواقعية وبالمحبة وبالعبادة، فعرف أن ابن عمر لا يقيم الليل، فقال: نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل.

وأثرت فيه هذه الكلمة النبوية تأثيراً بالغاً فعرف بالزهد والتقوى والصلاح والنسك وكان يُحيي الليل صلاةً. وقال ابن مسعود: إن أملك شباب قريش لنفسه في الدنيا عبد الله بن عمر، وقال ابن الأثير: كان ابن عمر شديد الاحتياط والتوقي لدينه في الفتوى. وعن الأسود عن عبد الله قال: لقد رأيتنا ونحن متوافرون ما فينا شاب هو أملك لنفسه من ابن عمر. وقد تركت تربية النبي ﷺ أثراً واضحاً في نفسه وعقله. عن مالك عمن حدثه أن ابن عمر كان يتبع أمر رسول الله ﷺ وآثاره وحاله ويهتم به حتى كان قد خيف على عقله من اهتمامه بذلك. وقيل لنافع: ما كان يصنع ابن عمر في منزله؟ قال: لا

(١) تحفة الأحوذي م٧، باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص ص ١٠٥، ١٠٦، أبواب صفة القيامة.
(٢) صحيح البخاري بحاشية السندي م٢، كتاب النكاح، باب من لم يستطع الباءة فليصم، ص ٢٣٨

تطيقونه، الوضوء لكل صلاة والمصحف فيما بينهما، وكان إذا فاتته العشاء في جماعة أحيا بقية ليلته. وهذا النوع من الشباب هو الذي تنطبق عليه كلمات النبيّ في قوله: «وشاب نشأ في عبادة ربه».

إن الشباب المؤمن طاقة ربانية تثور في وجه الباطن وتندفع نحو الخير وتشق طريقها نحو الحق بكل ثبات وهمة. والقرآن الكريم قصَّ علينا أمثلة عظيمة من قصص هذا الشباب المؤمن بربه وعقيدته. يقول الله تعالى في سورة الكهف عن هؤلاء الشباب الذين آمنوا بربهم وواجهوا الباطل بكل قوة وحزم: ﴿**نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى * وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض، لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططًا**﴾[1].

لقد اندفع هذا الشباب المؤمن وقام في وجه الباطل، فرفض الخضوع أمام السلطان الجائر وقال: ﴿**ربنا رب السموات والأرض**﴾ أي رب هذا الكون كله ﴿**لن ندعو من دونه إلهاً**﴾ لأنه واحد بلا شريك ﴿**لقد قلنا إذاً شططًا**﴾ وتجاوزنا الحق، وحدنا عن الصواب. وهنا يبدو موقف الشباب والفتية واضحاً صريحاً حاسماً لا تردد فيه ولا تلعثم؛ لأنهم فتية أشداء في أجسامهم، أشداء في إيمانهم أشداء في استنكار ما عليه قومهم. وهذا اللون من الشباب هو الذي سيظل بظل الرحمن يوم لا ظل إلا ظله.

والصنف الثالث الذي يستظل بظل الرحمن «رجل قلبه مُعلَّق في المساجد». وفي ذلك إشارة إلى تلك العلاقة القوية بين العبد والله، والتي تتمثل في شدة الحب. فإذا خرج منه ظل في شوق إلى العبادة والطاعة حتى يعود إليه؛ «وذلك لأنه لما آثر طاعة الله وغلب عليه حبه صار قلبه مشدوداً إلى المسجد، لا يحب

(١) سورة الكهف: ١٣، ١٤.

البراح عنه؛ لوجدانه فيه روح القربى وحلاوة الطاعة. قال الحافظ: ظاهره من التعليق كأنه شبهه بالشيء المعلق في المسجد كالقنديل إشارة إلى طول الملازمة بقلبه إن كان جسده خارجاً عنها»[1].

وهذه من الوسائل الفَعَّالة التي اختارها الله تعالى لتنقية قلب العبد وتطهير روحه ونفسه من شوائب الدنيا وعلائق المادة، وليكون العبد مندفعاً إلى المسجد مشتاقاً للصلاة فيه ويضع نصب عينيه أن الملائكة تنتظره في رحاب هذا المسجد، وأن بيت الله يشع نوراً وضياءً، ويعبق الجو بالعطر والمسك، وينعش النفس ويربط قلبه بالله تعالى، عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي صلى فيه ما لم يحدث. اللهم اغفر له، اللهم ارحمه».

وأخبرنا قتيبة قال: حدثنا بكر بن نصر عن عباس بن عقبة أن يحيى بن ميمون حدثه قال: سمعت سهلاً الساعدي - رضي الله عنه - يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان في المسجد ينتظر الصلاة فهو في الصلاة»[2].

وفي الحديث وقفة تربوية نبوية كريمة؛ إذ أراد ﷺ أن يوجه المؤمن إلى تقويه الصلة بالله، ثم ذكر وسيلة فعالة لتطبيق هذه الفكرة، وهي أن يكون قويَّ الصلة بالمسجد، شديد العناية بأداء الصلوات الخمس مع الجماعة في المسجد، ليكون مرتبطاً بالجماعة يتفقد أحوالهم، ويتعاطف معهم في أمورهم، ويكون كل فرد منهم لبنة مباركة في بناء البيئة الإسلامية، وفي الحديث إشارة إلى فضل المسجد وفضل الملازمة له واستمرار المؤمن فيه بالقلب وإن عرض للجسد

---

(١) شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، ج٤، باب ما جاء في المتحابين في الله ص ٤٣٧، ٤٣٨.

(٢) سنن النسائي شرح السيوطي وحاشية السندي ج١ الترغيب في الجلوس في المسجد وانتظار الصلاة ص ٥٥- ٥٦.

عارض[1]. ولذلك أشاد القرآن بمكانة المسجد في الإسلام فقال تعالى: ﴿**في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال * رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار * ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب**﴾[2].

تلك البيوت (أذن الله أن ترفع)، وإذن الله هو أمر للنفاذ، فهي مرفوعة قائمة، يعبد فيها الله تعالى (ويذكر فيها اسمه) وتتعلق بها القلوب المؤمنة الوضيئة الطاهرة المسبحة الواجفة، قلوب الرجال الذين ﴿**لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة**﴾، والتجارة والبيع لتحصيل الكسب والثراء، ولكنهم مع شغلهم بهما لا يغفلون عن أداء حق الله في الصلاة وأداء حق العباد في الزكاة ﴿**يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار**﴾ من شدة الهول والكرب والاضطراب. إنهم يخافون ذلك اليوم فلا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وهم مع هذا الخوف يعلقون رجاءهم بثواب الله ﴿**ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله**﴾. وهذا الصنف هو الذي يدخل في «ورجل قلبه معلق في المساجد».

والصنف الرابع ممن يتنعم بظل الرحمن «رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه». فالمحبة في الله ولله خير وسيلة لمحاربة المادية والأنانية والنفعية ولنشر السعادة والهناء ولإقامة روابط أخوية وللتآلف والتواد ليكون المجتمع الإسلامي مجتمعاً مثاليًّا يحتذى ويتطلع إليه البشر كلما ادلهمت الأمور واشتدت الأزمات وقد سلك الإسلام لذلك وسائل عديدة، عن أبي مسلم الخولاني حدثني معاذ بن جبل قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل:

(١) فتح الباري م٢، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، ص ١٤٥.
(٢) سورة النور: ٣٦ - ٣٨.

المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء»[1].

والمعنى أن حالهم عند الله يوم القيامة بمثابة لو غبط النبيون والشهداء يومئذ - مع جلالة قدرهم ونباهة أمرهم - حال غيرهم لغبطوهم.

وكان ﷺ يتحين الفرص لغرس معاني الأخوة وتعميق الروابط الأخوية بين المسلمين عن أبي هريرة قال: رسول الله ﷺ: «إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي»[2].

ومن هذه الوسائل التربوية ذكر بعض القصص الواقعية المثيرة للنفس، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى فأرسل الله له على مدرجته ملكاً فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية. قال هل لك من نعمة تربها؟ قال: لا غير أني أحببته في الله عز وجل، قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه»[3].

بهذه الوسائل النفسية والتربوية والاجتماعية كان نبي الهدى ﷺ يجهز أحبابه وجماعته ليكونوا على المستوى اللائق ليستظلوا بظل عرش الرحمن يوم لا ظل إلا ظله ولا باقي إلا وجهه، وكان ينير إلى ذلك الطرق الكريمة، ويبين الوسائل القوية التي تعمق مفاهيم الأخوة، ومنها عن سعيد بن يزيد بن نعامة الضبي قال: قال رسول الله ﷺ: إذا آخى الرجلُ الرجلَ فليسأله عن اسمه واسم أبيه وممن هو ؟ فإنه أوصل للمودة»[4].

---

(١) تحفة الأحوذي، م٧ باب ما جاء في الحب في الله، ص ٦٦.
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، ج١٦، كتاب البر والصلة، فضل الحب في الله ص ١٢٣.
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي، ج١٦، كتاب البر والصلة، فضل الحب في الله ص ١٢٤.
(٤) تحفة الأحوذي، م٧، باب ما جاء في الإعلان بالحب، ص ٧٢.

وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ: « لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله وحتى أن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله، وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه ممن سواهما»(١).

والصنف الخامس الذي يستظل بظل الرحمن هو الصنف الذي نجا من فتنة النساء وفتنة الإغراء وفتنة الشهوة وفتنة الوقوع في حبائل الشيطان وهو «رجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله» وظاهر الحديث أنها دعته إلى الفاحشة. وبه جزم القرطبي(٢).

ونبي الهدى يعرف طبيعة أمته ويعرف أسباب الفتنة في أمته، ويدرك منحنيات النفوس ومكامن الشهوات ويعرف أنها مزالق ومنحنيات خطيرة في طريق البلاء والابتلاء، ولذلك حذر الأمة من ذلك. عن أسامة بن زيد وسعيد ابن زيد بن عمرو بن نفيل عن النبي ﷺ قال: «ما تركت بعدي في الناس فتنة أضر على الرجال من النساء»(٣).

وهو ﷺ يعرف جيدًا أن النفس الأمارة بالسوء سرعان ما تجد منفذاً لها ومدخلاً بطريق النساء فحاول أن يسد هذه المنافذ، عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أدع بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء».

ولقي أبو هريرة (امرأة) متطيبة تريد المسجد فقال: يا أمة الجبار أين تريدين؟ قالت: المسجد. قال: وله تطيبت. قالت: نعم. قال: فإني

---

(١) صحيح البخاري بحاشية السندي، ج٧، كتاب الأدب. باب الحب في الله ص ٥٧.
(٢) فتح الباري م٢ كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد ص ١٤٥.
(٣) تحفة الأحوذي، ج٨، باب ما جاء في تحذير فتنة النساء ص ٦٤.

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أيما إمرأة تطيبت ثم خرجت إلى المسجد لم تقبل لها صلاة حتى تغتسل»[1].

والنجاة من هذه الفتنة من المسائل العويصة التي شغلت بال الأنبياء والمصلحين والمربين، ونحن نعرف أن نبيَّ الله يوسف عليه الصلاة والسلام وقع في سلسلة من الابتلاءات كان أبرزها فتنته أمام امرأة ذات منصب وجمال **﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون * ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾**[2].

وهنا ننبه إلى أن بيئة الترف والثراء وبيئة الاختلاط والإغراء بيئة خطيرة في حياة المسلم، ومثل هذه البيئة تقع فيها هذه الفتن غالباً. ويوسف عليه السلام كان فيها مولى، وتربى فيها في سن الفتنة، فهذه هي المحنة الطويلة التي مرَّ بها يوسف، وصمد لها ونجا منها ومن تأثيراتها ومغرياتها ووسائلها الخبيثة ولسنه وسن المرأة التي يعيش معها في قصر منيف، كل هذه المدة، قيمة في تقدير مدى الفتنة وخطورة المحنة **﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك﴾**. إذاً فقد كانت المراودة مكشوفة. وهذه الدعوة السافرة الغليظة لا تكون أول دعوة من المرأة إنما تكون هي الدعوة الأخيرة. ولكن جواب الشاب النقيّ يوسف عليه السلام كان عظيماً وقويًّا عندما قال كما يحكي القرآن العظيم: **﴿قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون﴾**. وهذا الجواب وهذا العمل هو الذي يُسبِّب التشريف بظلِّ عرش الرحمن وبالاسترواح في رحمته. وقد حدث هذا عبر السنين ويمكن أن يحدث في كل وقت إذا وجدت البيئة الصالحة والتربية الشاملة والرعاية المتكاملة للشباب.

---

(١) صحيح سنن ابن ماجه م٢، باب فتنة النساء ص ٣٦٦. اختصار محمد ناصر الدين الألباني.
(٢) سورة يوسف: ٢٣، ٢٤.

والصنف السادس الذي يتمتع بظل العرش يوم لا ظل إلا ظله «رجل تصدق بصدقة فأخفاها» أي كتمها عن الناس، ونكرها ليشمل ما تصدق به من قليل وكثير»[1].

وهذه خير وسيلة لتشجيع المؤمنين على الإنفاق في سبيل الله ومد يد العون إلى الأمة الإسلامية. وقد ركَّز الإسلام على هذه الناحية تركيزاً شاملاً نظراً لخطورتها وأهميتها في بناء مجتمع إسلامي كريم. قال تعالى: ﴿**مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبَّة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم**﴾[2]. لأن تشريع الصدقة لا يبدأ بالفرض والتكليف إنما يبدأ بالحض والتشجيع. إنه يستجيش المشاعر والانفعالات في الكيان الإنساني كله بقوله: «سبعة يظلهم الله في ظله»، حيث تتطلع النفوس إلى هذا الظل الظليل المريح وتبحث عن وسائلها، إلى ذلك فتجد في الإنفاق وفي إخفاء الصدقات وسيلة إلى هذا الظل الظليل. وهذا التعبير في موكب الحياة النامية يتجه بالضمير البشري إلى البذل والعطاء، إنه لا يعطي، بل يأخذ، وإنه لا ينقص، بل يزاد وتمضي موجة العطاء والنماء في طريقها تضاعف المشاعر التي استجاشها.

إنه الإنفاق الذي يرفع المشاعر الإنسانية ولا يشوبها، والإنفاق الذي لا يؤذي كرامة ولا يخدش شعوراً، والإنفاق الذي ينبعث عن الأريحية والنقاء، ويتمثل ذلك في الإخفاء وفي عدم المنِّ، قال تعالى ﴿**الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾[3].

---

(١) شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، ج٤ ص ٤٣٩.
(٢) سورة البقرة: ٢٦١.
(٣) سورة البقرة: ٢٦٢.

إن الإسلام لم يرد بالإنفاق مجرد تأدية الواجب وتلافي الحاجة، كلاَّ، إنما أراده تهذيباً وتزكية وتطهيراً لنفس المعطي واستجاشة لمشاعره الإنسانية، وارتباطه بأخيه الفقير في الله وفي الأخوة، وتذكيراً له بنعمة الله عليه وعهده معه في هذه النعمة أن يأكل منها في غير سرف ولا مخيلة وأن ينفق منها في سبيل الله في غير منع ولا مَنّ وبكل أساليب الإخفاء كما أراده ترضية لنفس الآخذ وتوثيقاً لصلته بأخيه في الله وسدا لخلة الجماعة المسلمة كلها لتقوم على أساس من التكافل والتعاون وحث الإسلام على ذلك في أكثر من موضع من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿**وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار * إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير**﴾[1].

وفي ذلك دلالة على أن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها؛ لأنه أبعد عن الرياء، إلا أن يرتب على الإظهار مصلحة راجحة من اقتداء الناس به فيكون أفضل من هذه الحيثية.

عن أبي ذر قال: قلت يا رسول الله، أي الصدقة أفضل؟ قال: سر إلى فقير أو جهد من مقل. رواه أحمد. وفي الحديث المروي «صدقة السِّرِّ تطفئ غضب الرب عز وجل».

وحدثنا موسى بن عمير عن عامر الشعبي في قوله: ﴿**إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم**﴾ قال: أنزلت في أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما، أما عمر فجاء بنصف ماله حتى دفعه للنبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «ما خلّفت وراءك لأهلك يا عمر؟» قال: خلّفت لهم نصف مالي. وأما أبو بكر فجاء بماله كله يكاد أن يخفيه من نفسه حتى دفعه إلى

---

(١) سورة البقرة: ٢٧٠، ٢٧١.

النبي ﷺ، فقال لـه النبي ﷺ: «ما خلّفت وراءك لأهلك يا أبا بكـر ؟» قال: عدة الله وعدة رسوله. فبكى عمر - رضي الله عنه - وقال: بأبي أنت وأمي يا أبا بكر؛ والله ما استبقنا إلى باب خير قط إلا كنت سابقاً[1].

وحيـاة السلف الصالح مليئـة بطـرق الإنفاق ومفـاهيم السخاء والعطـاء ووسائل الإخفاء في ذلك. قال كثير مـن المفسرين في قوله تعالى: ﴿**ويطعمون الطعـام على حبه مسكينًـا ويتيماً وأسيراً**﴾: إنها نـزلت في علي بن أبي طـالب - كرم الله وجهـه - وإن كانت في عمومهـا وصفاً للمـؤمنين الصادقي الإيمان؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصـوص السبب. ومهما يكن من القول في ذلك فإنه من المؤكد أن علي بن أبي طالب كـان من أسخى العرب، وقد كان أحفاده كذلك من بعده. فعلي زين العابدين كـان يحمل الطعام ليلاً ليوزعه على بيوت ما عرفت خصاصتها إلا من بعده، رضي الله عنه[2].

وهـذه الأسرة الكريمـة عـرفت بمثل هـذه الفضائل من التصـدق والتعب ومن النبل. والشرف ومن إخفـاء الصـدقـات. عن ابـن عينيـة عن أبي حمزة الثمالي أن علي بن الحسين كان يحمل الخبـز بالليل على ظهره يتبع بـه المساكين في الظُّلَمَة ويقول: إن الصدقة في سواد الليل تطفئ غضب الرب.

وعن يونس بن بكير عن محمد بن يسار: كان ناس من أهل المدينة يعيشون لا يدرون مـن أين كان معاشهـم؟ فلما مات علي بن الحسين فقدوا ذلـك الذي كانوا يُؤْتَوْن بالليل.

وعن جـرير بن عبـد الحميد عن عمـرو بن ثابت: لما مـات علي بن الحسين وجدوا بظهره أثراً مما كان ينقل الجُرْبَ بالليل إلى منازل الأرامل.

---

(١) تفسير ابن كثير، م١ سورة البقرة ص ٤٨٢.

(٢) الإمام الصادق، لأبي زهرة ـ سخاؤه، ص ٨٠.

وقال شيبة بن نعامة: لما مات عليّ وجدوه يعول مائة أهل بيت. قلت: لهذا كان يُبَخَّل؛ فإنه ينفق سرًّا ويظن أهله أنه يجمع الدراهم. وقال بعضهم: ما فقدنا صدقة السر حتى توفي عليّ[1].

وهذا الصنف من الناس هو الذي يستظل بظل عرش الرحمن ويستحق أن ينال الأجر والثواب والقربى والزلفى يوم الحساب.

والصنف السابع والأخير الذي يتمتع بالعناية الربانية الخاصة ويستظل بظل عرشه في يوم عصيب وفي لحظة حرجة هو «رجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه» أي بقلبه من التذكر أو بلسانه من الذكر، خاليا؛ لأنه يكون حينئذ أبعد من الرياء، والمراء خاليا من الالتفات إلى غير الله ولو كان في ملأ، قوله: « ففاضت عيناه» أي فاضت الدموع من عينيه وأسند الفيض إلى العين مبالغة كأنها هي التي فاضت، وفيض العين بحسب حال الذاكر، وبحسب ما يكشف له، ففي حال أوصاف الجلال يكون البكاء من خشية الله، وفي حال أوصاف الجمال يكون البكاء من الشوق إليه)[2].

والبكاء من الخشوع والخوف من أحب اللحظات والصفات عند الله تعالى، وذكره القرآن بألفاظ مليئة بالمعاني والإيحاءات قال تعالى: ﴿**إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدًا * ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً * ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعًا**﴾[3].

وهو مشهد موحٍ يلمس الوجدان مشهد الذين أوتوا العلم من قبله وهم يسمعون القرآن فيخشعون، ثم لا يتمالكون أنفسهم، فهم لا يسجدون ولكن

---

(١) راجع سير أعلام النبلاء، ج٤ (علي بن الحسين) ص ٣٨٦.
(٢) فتح الباري، م٢، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، ص ١٤٧.
(٢) الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩.

يخرون لـلأذقان سجـداً، ثم تنطق ألسنتهم بما خـالج مشـاعرهم من إحسـاس بعظمة الله وصـدق وعده ﴿**سبحان ربنـا إن كان وعد ربنـا لمفعولا**﴾، ويغلبهم التأثـر فلا تكفي الألفـاظ في تصويـر مـا يجيش في صدورهم منـه فإذا الدمـوع تنطلق معبرة عن ذلك التأثر الغامـر الذي لا تصوره الألفاظ ﴿**ويخرون للأذقان يبكون**﴾، ﴿**ويزيـدهم خشـوعًا**﴾ فوق مـا استقبلوه بـه من خشوع وهـو الأمر المفضّل عند الله تعـالى. عن أبي هريرة قال: قال رسـول الله ﷺ: «لا يلج النار رجل بكى من خشيـة الله حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبـار في سبيل الله ودخان جهنم»(١).

وقد كان ﷺ يعلم أصحـابه البكاء من خشية الله والبكاء بعـد تلاوة القرآن؛ عن عبد الله بن مسعود قال: قـال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ عليَّ فقلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: نعم إني أحب أن أسمعه من غيري. فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿**فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا**﴾ فقال: حسبك الآن. فإذا عيناه تذرفان».

وعن محمد بن فضـالة الأنصاري عن أبيه قـال - وكان أبي ممن صحب النبي ﷺ: إن النبي ﷺ أتاهم في بني ظفر فجلس على صخـرة التي في بني ظفر اليوم ومعه ابن مسعـود ومعاذ بن جبل ونـاس من أصحابـه فأمر النبي ﷺ قـارئاً فقرأ حتى أتى على هـذه الآية ﴿**فكيف إذا جئنـا من كل أمـة بشهيد وجئنـا بك على هؤلاء شهيدًا**﴾ فبكى رسول الله حتى ضرب لحياه وجنباه(٢).

وكأنه ﷺ يدرب أصحابه على البكـاء من خشية الله والتأثير بعد تلاوة القرآن حتى يـدخل في زمـرة «رجل ذكـر الله خاليـاً ففـاضت عينـاه» وحتى يـدخل في

---

(١) تحفة الأحوذي، م٦، أبواب الزهد، باب ما جاء في فضل البكاء من خشية الله تعالى، ص ٦٠٠.
(٢) سورة النساء: ٤١ تفسير ابن كثير م١ ص ٧٥٤.

﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدًا وبكيًّا﴾(١). أولئك النبيون ومعهم من هدى الله واجتبى من الصالحين فهم أتقياء شديدو الحساسية بالله، ترتعش وجداناتهم حين تتلى عليهم آياته فلا تسعفهم الكلمات للتعبير عما يخالج مشاعرهم من تأثر فتفيض عيونهم بالدموع ويخرون سجداً وبكيًّا.

وهو ﷺ يربي أصحابه على البكاء بالتطبيق العملي وبالانفعال بتلاوة القرآن مرة وبالحديث مرة أخرى. عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله»(٢). وكأنه ﷺ يحث خيرة أمته أن يكونوا من أولئك الأتقياء الحساسين الذين تفيض عيونهم بالدمع وتخشع قلوبهم لذكر الله. عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «ليس شيء أحب إلى الله من قطرتين وأثرين: قطرة دموع من خشية الله وقطرة دم تهراق في سبيل الله، وأما الأثران فأثر في سبيل الله وأثر في فريضة من فرائض الله».

هذه التربية النبوية تركت أثراً جميلاً في نفوس أصحابه فكانوا يتلون القرآن بكل الخشوع والخضوع حتى كانت تفيض أعينهم من الدموع وتقشعر أبدانهم من الخوف والعظمة، وأولهم أبو بكر رضي الله تعالى عنه «وكان له مسجد عند باب داره في بني جمح، فكان يصلي فيه، وكان رجلاً رقيقاً إذا قرأ القرآن استبكى. قالت عائشة: فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيأته»(٣).

---

(١) سورة مريم: ٥٨.

(٢) تحفة الأحوذي، م٥، باب ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله ص ٢٦٨.

(٣) السيرة النبوية، لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وزملائه. القسم الأول ص ٣٧٣، دخول أبي بكر في جوار ابن الدغنة.

وكان ﷺ يسلك وسائل تربوية متنوعة ليبعث في أصحابه الخشوع والخضوع ويدربهم على البكاء ويرقق عواطفهم ويستجيش مشاعرهم حتى يستظلوا بظل عرش الرحمن، ويشملهم هذا الحديث «رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه». وهذه وقفة تربوية مباركة، فعن نافع عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: «استقبل رسول الله ﷺ الحجر واستلمه ثم وضع شفتيه عليه يبكي طويلاً فالتفت فإذا عمر يبكي، فقال يا عمر ها هنا تسكب العبرات» هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه[1].

- فقه الحديث:

إخفاء الصدقة يشمل المندوبة والمفروضة، لكن نقل النووي عن العلماء أن إظهار المفروض أولى من إخفائها[2].

- ما يستفاد من الحديث:

١ - الحديث يفتح باباً واسعاً للنجاة من وهج الشمس الحارقة في يوم عصيب يوم العقاب والحساب، ويشير إلى ظل ظليل ميسور ليصون المؤمن نفسه من أشعة الشمس الحارقة.

٢ - الحديث يبعث في المؤمن روح الأمل والحماس ليبحث أحد الأنواع والأقسام التي تستظل بظل الرحمن وينمي فيه العادات الحسنة المفطورة ويحذره من الأهواء الجامحة ويقيم السدود في وجه النفس الأمارة بالسوء.

٣ - الحديث يشير إلى أن الإكراه على أعمال البر لا يدفع المؤمن نحو ميادين الخير، بل الحث والتشجيع خير طريق لتنمية الصفات الحسنة وتربية الشباب وبعث الأنواع المكرمين «شاب نشأ في عبادة ربه».

---

(١) المستدرك على الصحيحين، للحاكم ج١، كتاب المناسك. استلام الحجر وتقبيله والبكاء، ص٤٥٤.

(٢) شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، ج٤، ص ٤٣٩.

٤ - الحديث يشير إلى أن الطريقة المثلى للتربية هو استثارة أشواق المؤمن الكامنة إلى السمو والكمال بأسلوب سائغ من الإقناع والمحبة أنجح وأبرك لتوجيهه للانضمام إلى أحد أنواع السبعة المكرمين بظل الرحمن .